

قراءة في كتاب د. عاطف عطية في الاجتماع اللبناني جدلية الوحدة والتعدد

د. عبد الغني عماد

الإنشاء



الخوض في القضايا الشائكة التي يحب المؤلف خوض غمارها، وخاصة فيما يتعلق بقضايا هذا الوطن والمجتمع الذي ينتج من تحت جمر السلم الأهلي البارد حروبه وإشكالياته وتناقضاته.

كتاب يحاول ان يقول كيف يمكن الخروج من أتون هذا التوتر الذي يلف حياتنا ويحكمها بتسويات مؤقتة لا تجلب الطمأنينة ولا تصنع السلم المجتمعي.

الغريب في هذا الكتاب خلوه من خاتمة. فبعدما اعتبرت ذلك نقصاً، عدت فوجدت ذلك خيراً. فمن يستطيع ان يدعي قدرة على كتابة خاتمة سعيدة او غير سعيدة للاجتماع اللبناني؟. هذا (الاجتماع/ المجتمع) (الفريد/ المتفرد) الذي سيبقى القول فيه قولاً لا حسم فيه مهما شأن القائلين.

قد تختلف او تتفق مع عاطف عطية، كما وجدت نفسي، وليس هذا المهم، بل المهم هو ان تمتلك القدرة جميعنا على الاختلاف والاتفاق، ونمتلك بالتالي الإرادة والوعي الحر لنمارس هذا الاختلاف والاتفاق بأسلوب ديموقراطي راق... فهل نحن قائلون؟!.

❖ في الاجتماع اللبناني، جدلية الوحدة والتعدد، صادر عن دار «الإنشاء» للصحافة والطباعة والنشر، وعن مركز محمود الأدهمي الثقافي، ٢٠٠٥، (١٩٠ ص).

والتي تؤدي الى ترسيخ الزعامة التقليدية، ومن يشد عن ذلك بفضول متفرد او استثنائي، فإنما يكتفي بتقديم البرهان على وجود ديموقراطية يشكك بها دائماً.

لديموقراطية في المجتمع اللبناني محور مهم في فصول الكتاب يخلص فيها الى أنه لا ديموقراطية في ظل الطائفية، ويدحض مقولة الديموقراطية التوافقية التي فشلت في إرساء السلم الأهلي، معتبراً إياها مقولة مقنعة لترسيخ الطائفية التي أصبحت حالة مرضية ولم تعد ظاهرة اجتماعية وسياسية فقط. للشباب وعلاقتهم بالحدثة حصة هامة في أحد فصول الكتاب، يحاول فيه ان يجيب عن سؤال يقلق الكثيرين: كيف يمكن للشباب ان يسلك طريق الحدثة؟.

ليتابع بعده، وتحت عنوان لافت: «هراطقة وأطهار»، دراسة إشكالية العلاقة مع «الأخر» في مجتمع متعدد ومتنوع حيث تعتبر كل طائفة نفسها ممثلة للإيمان المطلق. يدخل عطية في محوره هذا الى عمق سوسولوجيا المعرفة محللاً المنظومة الفكرية الدينية من جهة والاجتماعية من جهة أخرى وآلية اشتغال الفكر والواقع عند كل منهما.

ويختتم في فصله الأخير في نفس السياق لكن باتجاه دراسة العلاقة مع الموت بين الإيمان والممارسة، وهو هنا يقترب من موضوع يتعد عنه المثقف العربي عادة، فالحديث عن الموت وطقوس الحزن عند المؤمنين في كل الطوائف من المواضيع الحساسة والمثيرة للجدل.

كتاب شيق وممتع يستأنف

لفتني في كتاب الصديق عاطف عطية هذا التنوع والغنى الذي يتضمنه، فالتصفح الأولي للكتاب يجذبك من خلال عناوين موضوعاته المتميزة، وما ان تبدأ بقراءته حتى تأخذك مواضيعه الى فضاءات ثقافية وفكرية يشعر معها القارئ وكأنه يتجول في «حديقة» غنية بالمعرفة والتحليل تتوزع على عشرة زوايا في كل منها يربط فصل من فصول الكتاب، ورغم ان هذه الزوايا تقع في أزمنة مختلفة، إلا ان التنقل فيما بينها يجعل من القارئ متلهفاً للانتقال الى الزاوية الأخرى ليقرأ فصلاً جديداً في هذا الاجتماع اللبناني الفريد والمتنوع، وربما يظن البعض ان بعض الزوايا أجمل او بعض الفصول أكثر متعة، إلا أنه يحار في النهاية كيف يمكنه ان يفاضل بينها، وكل منها يتميز ويتفرد بما يجب ان يتميز ويتفرد به.

في الفصل الأول والثاني يقرأ عاطف عطية في تكوين المدينة التقليدية، متخذاً من طرابلس نموذجاً له، فيقدم قراءة سوسولوجية جادة في الاجتماع الديني، في الفصل الثالث يقدم دراسة تنتمي الى نوع جديد من الدراسات السوسولوجية، فيدرس آلية تداول وانتقال الأسماء بين الأجيال ويرصد التطور والتغير الذي يصيب الأسماء المطلقة على المواليد الجدد وأثر التفرنج او التفريغ عليها.

في الفصل الرابع يبحث في العلاقة بين الدولة والمجتمع وفي تأسيس العنف الرسمي، ويخلص الى أنه لا الميثاق الوطني ولا الطوائف أمكنه تأسيس المجتمع المدني المنشود، ويخلص فيه الى ضرورة إيجاد نظام تربوي تعليمي جديد يزرع حب الوطن والولاء له قبل أي شيء آخر. يتابع في الفصل الخامس فيقرأ في سوسولوجيا الحرب الأهلية، مبيناً أنها تبدأ بزعة الاستقرار الأمني، ثم بزعة الاستقرار الأخلاقي العام، بهدف كسر سلطة الدولة، وتفتيت المجتمع المدني وبدون هذه المقدمات لا يمكن للحرب الأهلية ان تطل برأسها.

في الفصل السادس يحلل كيفية نشوء الزعامة السياسية وعلاقتها بالدائرة الانتخابية، وكيف تقوم التحالفات، ويكشف المستور والمضمّر في قانون الانتخاب والممارسة الانتخابية